(١٨)
الغجرية الحائرة

- أنا في حيرة يا يعقوب
- لِمَ؟
- الموضوع كبير ومُعقَّد
- أخبريني
- لا أعرف ماذا أقول
- قولي ما تشعرين به
- أشعر بأني أريد أنْ أتوب الآن

فوجم يعقوب ، وظلَّ لفترة صامتا يشعر بالغيظ والضيق ، لكنه كظم غيظه وقال :

- باب التوبة مفتوح دائما لا يُغْلَق .. فلماذا الآن؟
- هل تقصد أنْ أؤجل توبتي؟
- طبعا
- والموت يا يعقوب؟! .. إنه يأتي فجأة
- يكفي أنَّ في نيتك أنْ تتوبي .. إنما الأعمال بالنيات
- أنتَ شيطان مُضلِّل يا يعقوب
- تلميذك يا معلمتي

واتصل ياسين بوعد يخبرها بأنه يريدها على وجهٍ عاجلٍ حتى تذهب معه إلى فيلا أهل يارا بالزمالك لخطبتها ، فهم ينتظرون هذه الخطوة منه ، فشعرتْ أيضا

بحيرة شديدة إلى جانب ما هي فيه ، ولم تستطع أنْ تنام ليلتها ، ولم تستطع أنْ تخبر مالك ، فلن يفهمها في حالته تلك ، ولن يغفر لها خطاياها ، ولن يرضى أبدا عن شرورها .

وضاقت بها أسرارها ، بل خنقها حفظ تلك الأسرار وحدها ، فأرادت أنْ تُبَاعد طوق الخناق عنها ، فلم تجد أفضل مِن يعقوب لتسكب عنده كلَّ الأسرار ، فهو الوحيد الذي سيساعدها في الخروج مِن كل حيرتها ، خاصة أنها صارت تثق به كثيرا بعد أنْ أثبت كفاءته في كل شيء ، فصار بذلك يدها اليمنى ، فكيف لا تُسلِّم يدها اليمنى ما عجزت عن أنْ تحمله وحدها يدها اليسرى الضعيفة؟

اتصلتْ به ليتقابلا ، فلما أتاها قالت له :

- أخبرتكَ مِن قبل أني أريدكَ أنْ تقتل ابني .. فهل تذكر؟
- طبعا أذكر
- لِمَ لمْ تستغرب أو تسألني كيف أفكر في ذلك؟
- أنا فقط أفعل ما تأمريني به .. أنا تلميذ مطيع .. والطاعة هي نصف النجاح
- أنا حائرة جدا ولا أعرف ماذا أفعل
- اعلمي أني طوع بنانك في كل شيء .. فقط عليكِ أنْ تأمريني
- إذن فأنا مضطرة أنْ أخبركَ بسر حياتي .. هذا لأني أحتاجك كثيرا فيما هو قادم
- اعلمي أنَّ أسرارك هي أسراري يا معلمتي
- سأخبرك لكن لا تجعلني أندم .. فندمي قاتل يا يعقوب
- اطمئني .. فمنذ عرفتكِ صارت أذني سجنا أحبس فيه كلَّ كلامك .. ثم أغلقه بمفاتيح أرميها تكرارا في أعمق بحر

وأخيرا أخبرتْ وعد يعقوب بكل شيء في حياتها مِن البداية إلى النهاية ، وكل شيء عن خطتها القديمة وخطتها الجديدة ، فظلَّ الرجل للحظة منبهرا مذهولا مأخوذا بكل ما سمع ، ثم قال معجبا بها :

- يا معلمتي العزيزة .. أنا فخور بكِ جدا .. في كل يوم أتعلم منكِ شرا جديدا

- لكني أفكر في التراجع عن كل شيء لأمنع هذا الزواج الحرام

- معلمتي .. مَن قطع عرض البحر عوما حتى أوشك على الوصول للشط الآخر بعد إنهاكٍ طويل سيغرق ويموت أثناء رجوعه للشط الأول .. قوته الباقية تكفيه فقط للوصول لا الرجوع .

فأخذتْ وعد نفسا عميقا ثم قالت :

- لكني لا أستطيع أن أستوعب أنْ أزوج ابني لابنتي

- سيعوض ذلك الكنوز التي ستحصلين عليها والنعيم الدائم .. وبالطبع فلن تنسيني

- طبعا يا يعقوب .. لكن أشر عليَّ .. مطلوب مِني أنْ أذهب وأقابل مَن كنتُ أعمل لديهم خادمة ثم خدعتهم خديعة السنين

- إنْ رآكِ أحد منهما سيعرفك

- لن يعرفاني يا يعقوب .. فقد مرت سنوات

- سيعرفانك يا معلمتي .. ليس مِن السهل أنْ ينساكِ أحد .. مثلك يملأ القلب والعقل

ونظرتْ وعد بطرف عينيها إليه ، فضحك يعقوب ضحكة خفيفة ثم تنهَّد فقالت له :

- ماذا بكَ يا تلميذ؟

- فقط عقلي وقلبي يهذيان باسمك ليل نهار

أعادت نظرتها بغضبٍ ولم تعقب فقال :

- سامحيني
- خَلِنا في موضوعنا يا يعقوب
- لا موضوع لي غيرك يا وعد

فصرختْ فيه قائلة :

- يعقوب لا تجعلني أندم على أني أخبرتك بأسراري

فقال يعقوب بنبرة آسفة :

- لن تندمي أبدا .. أعدك بذلك فسامحيني
- يعقوب .. أنا أحب الدكتور مالك ولن أخونه .. أنتَ إنسان جيد بالنسبة لي .. ربما لو لم يكن مالك بحياتي .. لكان لكَ مكان بقلبى .. لكن .....

قالتها وصمتتْ ونظر لها يعقوب وأحسَّ بالراحة فابتسم وقال :

- هذا يكفيني منكِ يا معلمتي .. لنعد إلى موضوعنا

فقالت وعد :

- فكرتُ أنْ أغيّرمِن شكلي واسمي

فضحك يعقوب وقال :

- الأثرياء أذكياء يا معلمتي .. سيعرفانك
- إذن ما الحل؟
- الحل أنتِ فكرتِ به في الخطة القديمة والخطة الجديدة
- هل تقصد قتل أحلام ومعتصم؟

- طبعا .. ومِن الخطأ التراجع عن ذلك
- لكن الحبَّ رقَّق قلبي يا يعقوب
- إذن طالما أنَّ الحب رقَّق قلبكِ .. فلماذا لا تخبريهم بالحقيقة؟
- هل تريدني أنْ أدخل السجن يا يعقوب؟ .. مَن يعتني بحبيبي مالك؟
- إذن ليس أمامك إلا أنْ تكملي العوم للشط الآخر .. بهذا تصلي إلى النجاة والنصر
- لكن قد يغرق غيري في طريقي
- هناك كثيرون ماتوا غرقا تحت أقدام مَن نجوا
- معك حق .. فلنقتل المهندس معتصم والمهندسة أحلام يا يعقوب
- هذا شيء سهل يا معلمتي .. ولا مفر منه
- وياسين؟
- أرى أنْ نؤجل قتله الآن .. نحتاج وجوده مِن أجل يارا
- اقتنعتُ بتفكيرك الشيطاني هذا يا يعقوب
- أنا تلميذك الذكي المخلص يا معلمتي

وأخبرتْ وعد يعقوب بالطريقة التي فكَّرتْ فيها لقتل معتصم وأحلام معا ، ثم ذهبتْ إلى الرحاب ، وأخبرتْ ياسين وهايدي أنها مستعدة لمقابلة المهندس والمهندسة ، لكن ليكن اللقاء خارج الفيلا في فندق البارون بمصر الجديدة ، وليكن بدر ويارا معهما .. أخبرتهما أنها ستعد لهما استقبالا أسطوريا يليق بهم ، وأسرع ياسين يخبر يارا بذلك ، وأسرعت هايدي تخبر بدر ، وفرح الجميع .

وجاء دور وعد لأن تتحدث إلى المهندسة أحلام وتدعوها لذلك .. تناولتْ التليفون مِن ياسين .. أسرعتْ أحلام ترد ، فقد ظهر عندها الرقم باسم ياسين :

- مساء الخير مدام أحلام
- مساء الخير
- أنا مدام وعد والدة ياسين وهايدي
- أهلا بكِ يا حبيبتي .. تشرفنا
- ياسين لا يتوقف عن الحديث عنكم
- حبيبي ربنا يبارك فيه
- وهايدي أيضا تقول كلاما جميلا عنكِ
- هذا مِن حسن تربية سيادتك لهما يا مدام وعد
- شكرا حبيبتي .. مؤكد أنَّ الأولاد أخبروا سيادتك .. غدا نلتقي على العشاء
- إنْ شاء الله يا حبيبتي
- أبلغى سلامي للمهندس معتصم
- إنْ شاء الله

كانت وعد تحدثها بلهجة راقية تشبه لهجة أرقى الهوانم ، وقد كانت بارعة في ذلك .. أغلقتْ الخط معها والتفتتْ إلى هايدي وياسين لتراهما في قمة السعادة والأمل .. نظرتْ لهما ، وشعرتْ بحسرة وحزن على ما سوف يشعران به غدا مِن ألم خاصة هايدي .. أحستْ بقلبها يؤلمها .. وضعتْ يدها على قلبها .. انتبهت لها هايدي ، وانتبه ياسين على رد فعل هايدي .. جلستْ هايدي تحت قدميها وقالت :

- ماما .. ما لك؟

ربتتْ وعد على رأس هايدي وقالت في وجع :

- لا شيء يا حبيبتي

قال ياسين متأثرا :

- لكنكِ تضعين يدكِ على قلبك

قالت وهي تبتسم :

- كان ألما بسيطا .. لا أشعر بشيء الآن

ابتسمتْ هايدي وقالت :

- كيف يؤلمك قلبك وحبيبه طبيب قلوب؟

ابتسمتْ وعد وقبلتها ثم قالت في نفسها : (طبيب القلوب هو مَن يُوجِع قلبي يا هايدي)

وذهبت وعد إلى شقة الحي السادس ليطمئن قلبها على طبيب القلوب .. فوجئتْ بالباب غير مُغلَق .. دفعته ودخلتْ ونادت :

- مالك .. حبيبي . أين أنتَ؟

دخلتْ إلى حجرة نومه فلم تجده .. أسرعتْ إلى المطبخ والحمام فلم تجده ، فأصابها قلقٌ شديد .. اتصلتْ بيعقوب فقابلها على الفور .. ركب بجانبها وقادت سيارتها بكل شوارع الحي السادس تبحث عنه .. ذهبتْ منه إلى إشارة تقاطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس ، وسألتْ عنه إحدى المتسولات فأخبرتها :

- كان هنا منذ أربع ساعات

وخمَّن يعقوب أنه قد يكون عند سور الحديقة الدولية ، فقادت السيارة على الفور إلى هناك ، فلم يجداه .. نزل يعقوب وسأل عمال محل خضراوات وفواكه أولاد رجب ، فأخبره أحدهم أنه رآه بالفعل جالسا بجوار السور منذ ساعتين ..

انطلقتْ بسيارتها تبحث عنه في جنون بكل شوارع مدينة نصر، ثم ذهبتْ إلى ميدان العباسية وعند مطعم حاتي الميدان ثم كبدة الشرقاوى ، ولا أثر له .. قالت ليعقوب وهي تبكي بكاءً شديدا :

- أين مالك يا يعقوب؟

- لا تقلقي يا معلمتي سنجده

وجاءها اتصال مِن هايدي تطلب منها الذهاب لهما حالا لتختار معهما ملابسهما لمقابلة الغد .. قالت :

- أنا مشغولة يا هايدي

فبكتْ هايدي ثم شرعتْ تُلحُّ عليها ، فطلبتْ منها أمها أنْ تهدأ ، وأخبرتها أنها عائدة إلى الرحاب ثم أغلقتْ معها ، وقالت ليعقوب في نبرة مهمومة حزينة :

- يعقوب

- نعم يا معلمتي

- ما رأيك أنْ نتراجع عن موضوع القتل حتى نجد مالك؟

- كما تريدين يا معلمتي

- ويبقى لقائي معهم كما هو غدا في الفندق

- لكن رأيي أنْ يذهب ياسين وهايدي فقط لمقابلتهم .. لا تذهبي أنتِ

- لِمَ؟

- لو ذهبتِ وعرفاكِ فسوف يضيع كل شيء وستحطمين قلوب الأولاد .. ولن يتزوجوا حسب خطتك الجديدة

- إذن ما رأيكَ أنْ أؤجل اللقاء حتى أغيّر مِن شكلي؟

وضحك يعقوب ثم سألها :

- كيف ستغيرين مِن شكلك؟

- مجرد عملية تجميل

نظر لها يعقوب بإعجاب وقال حالما :

- أنتِ أصلا لا ينقصكِ جمال

فقالت في غضب :

- ليس هناك داعٍ لهذا الكلام

أعاد نظرته ، وقال في حنان :

- حقا أطباء التجميل يجب أنْ ينظروا لكِ .. ليجملوا النساء على مثالك

- يعقوب

- نعم

- أنا قلقة جدا على مالك

- لا تقلقي على مالك .. أعدكِ بأني سأرجعه لكِ

- حقا يا يعقوب

- حقا يا معلمتي

- يعقوب

- نعم يا أجمل معلمة

- مرَّ أكثر مِن عشرين عاما على خدمتي في بيتهم .. مؤكد أنهم لن يعرفوني

- وماذا لو عرفوكِ؟

- طبعا ستكون مصيبة كما قلت .. لن يكون هناك زواج .. إنَّ هايدي ابنتي تعشق بدر

- أخشى أنْ يصيبها الجنون يا معلمتي
- وقتها سيكون لديَّ مجنون ومجنونة .. ولن أتحمل ذلك أبدا
- وأيضا ياسين .. ياسين قد يقتلكِ
- لماذا يقتلني ياسين؟
- أنا لا أستبعد أنْ تعترفي بتبديل الولدين في لحظة ضعف أو يأس
- أنا راضية بالموت .. لكن مَن سيعتني بمالك بعد موتي؟ .. مَن سيعتني بهايدي؟ .
- إذن هل ما زلتِ تفكرين في التراجع؟

أوقفتْ السيارة ، ورمقتْ يعقوب بنظرة جانبية قائلة :

- نَفِّذْ مهمتك غدا يا يعقوب .. اقتل معتصم وأحلام
- أمرك يا معلمتي .. لكن .....
- لكن ماذا؟
- أريد بعض المعلومات عن الفيلا والشارع أمامها والسيارات التي يملكونها وسائقهم الخاص
- سيكون كل شيء لديكَ اليوم .. لكن بعد تنفيذ مهمتك لديكَ مهمة أهم
- أعرفها .. أنْ أجد لكِ مالك
- هذا أهم شيء لي
- أمرك يا معلمتي

وكان بدرويارا مِن فيلتهما بالزمالك على اتصالٍ دائمٍ بهايدي وياسين في شقتهما بالرحاب كأنهما يعيشان الحياة سويا لحظة بلحظة .. فهذه الآلة السحرية المسماة بالآيفون أو غيره مِن أنواع الهواتف المحمولة قد اختصرتْ كل المسافات ونبشتْ

كلَّ الأسرار حتى إنها قد قادت لكثيرٍ مِن الجرائم ، وعن طريق كاميرا الفيديو قد عرفتْ هايدي مِن بدرورأتْ بعينيها أمورا كثيرة تخصُّ بيتهم الثري ، ومثلها ياسين قد عرف عن طريق يارا كلَّ شبرٍ في فيلتهم وشارعهم وسياراتهم .. حدث ذلك بطريقة بريئة غير متعمدة قبل ذلك مِن باب الفضول ، ثم بطريقة ماكرة طلبتْ منهم الشيطانة وعد رؤية كل ذلك كاذبة مدعية أنه مِن باب الفضول أيضا ، أو مِن أجل التعرف على كل شيء يخص بدرويارا .

أمسكتْ وعد بكثير مِن المعلومات ، ثم طيَّرتها عبر نفس الآلات السحرية إلى الشيطان يعقوب الأصفر ليبدأ جريمته الشيطانية بالعبث أسفل سيارة معتصم ، وكانت قد أكدتْ له وعد ما عرفته مِن هايدي بأنَّ معتصم وأحلام سيركبانها وحدهما دون سائق ، وبدرويارا سيركبان سيارة بدر التي يقودها بدر.

وصلتْ وعد ومعها هايدي وياسين إلى فندق البارون .. جلسوا ينتظرون .. نظرتْ هايدي لأمها وقالت :

- أنتَ قمر يا ماما .. الحمد لله أنكِ متزوجة .. كنتُ سأخاف أنْ يتركني بدر ليتزوجكِ

ابتسمتْ وعد ابتسامة حزينة ، ونظر ياسين لهايدي وقال لها :

- ما هذا الكلام التافه الذي تقولينه؟

- هل تصف كلامي بأنه تافه؟! .. تأدَّب ولا تجعلني أخبر ماما

نظر لها ياسين نظرة غضب كأنه يتوعدها ثم سألتهما وعد :

- ماذا تخفيان عني؟

نظرتْ هايدي لياسين ثم سكتتْ ، فراحت أمها وعد تسأل ياسين بإلحاحٍ متواصل فلم يستطع أمام هذا الإلحاح إلا أنْ قال :

- تلك الحمقاء تريد أنْ تخبرك أنَّ مدام أحلام مهتمة بي جدا .....

فقاطعته هايدي قائلة :

- نعم مهتمة به جدا .. حتى أكثر مِن يارا .. يارا أخبرتني أنها صارت تغار مِن أمها على ياسين

ابتسمتْ وعد وبالطبع هي في داخلها تعرف أنَّ السبب في ذلك هو هذا الإحساس الأموي الفطري الغائب عنهما ،لكنها نظرتْ لياسين وقالت :

- طبعا لا بد أنَّ تهتم بهذا الشاب الوسيم

قالت يارا مسرعة :

- لكنه اهتمام غير عادي يا ماما
- كيف؟
- هل تصدقي أنها تركتهم وخرجتْ قبلهم للكوافير على أنْ تأتي منه إلى هنا .. تقول إنَّ ياسين يجب أنْ يراها أجمل مِن يارا؟

وهنا برقتْ عينا الغجرية وعد وسألتْ :

- مَن أخبركِ؟
- يارا نفسها
- وهل ستذهب معها يارا؟
- نعم ستذهب معها
- وبدر

- بدرسيركب سيارة عمو معتصم

وانتفضتْ وعد فجأة مِن مكانها واقفة وصرختْ :

- ابني

فوقف ياسين وهايدي .. قال ياسين :

- نعم يا ماما

نظرتْ له وتداركتْ أمرها ثم قالت :

- ياسين يا ابني .. اتصل ببدرواسأله لماذا تأخروا

واتصل ياسين ببدر ، لكنه لم يرد ، فخرجتْ وعد خارج المكان ثم اتصلتْ بيعقوب :

- يعقوب .. أين أنتَ؟

أجاب بصوتٍ حذر:

- في طريقي للبحث عن مالك

- يعقوب

- نعم

- هل كنتَ هناك حين غادروا بسياراتهم؟

- نعم كنتُ هناك

ترددتْ قليلا ثم سألتْ في قلق :

- مَنْ ركب سيارة معتصم؟

لم يرد يعقوب ، فصرختْ وعد فيه :

- مَن ركب سيارة معتصم يا يعقوب؟

قال يعقوب في صوتٍ متغير:

- هذا والله حدث رغما عني .. لم يكن ذنبي .....

أعادت فصرختْ فيه :

- ماذا حدث؟ .. تحدث .. قلْ كل شيء

قال يعقوب :

- بعد أنْ أتلفتُ فرامل سيارة معتصم وقفتُ مِن بعيد أنتظروأراقب .. نزلتْ المهندسة أحلام ويارا بصحبة بدر إلى سيارته ، ثم فجأة عادتْ يارا للفيلا .. وانطلق بدر بسيارته وبجانبه أحلام

تنفستْ وعد الصعداء وأحسَّتْ براحة ثم طالبته أنْ يُكْمِل فأكمل :

- بعد نصف ساعة جاء سائقهم مسعود الذي أخبرتني عنه بسيارة غير التي أتلفتُ فراملها .. فأصابني قلق شديد أن يركب معه معتصم .. لكن تناول منها مسعود شيئا أدخله إلى الفيلا .. ثم خرج وانصرف بالسيارة التي جاء بها

- وماذا بعد؟

- بعد نصف ساعة أخرى نزلتْ يارا مع والدها المهندس معتصم .. وانطلقا بالسيارة

- أية سيارة؟

- التي أتلفتها

قالت وعد :

- الحمد لله

فسألها يعقوب :

- ماذا يحدث عندك؟

- سلام الآن يا يعقوب

فأسرع يعيد السؤال غاضبا :

- أخبريني بما يحدث
- لم أعرف بعد .. سلام الآن

وبنفس اللحظة أقبلتْ هايدي تصرخ وتقول :

- ماما ماما .. عمو معتصم ويارا
- ما لهم؟
- مصيبة يا ماما مصيبة
- ماذا حدث؟
- وقعتْ سيارتهما مِن أعلى كوبرى أكتوبر